د.بوشيخي علي
جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

الموسيقى قديمة قدم الإنسان وهي من أقدم الفنون التي عرفتها البشرية ،والفن انعكاس للواقع والحياة في أعلى مراتبه،وهو تعبير عن الخصائص المميزة لبيئة من البيئات ، فهو جزء من تاريخه.وما من مجتمع لا يعرف الموسيقى ولكن دراستها بالغة الصعوبة لكونها ليست مكتوبة ومقننة مثل الموسيقى الغربية وتحاول مجموعة من الدراسات الخوض في هذا الميدان منذ ظهور علم موسيقى الأجناس ETHNOMUSICOLOGIE الذي اظهر التداخل الوثيق بين الظواهر الجمالية والظواهر الاجتماعية وان كل تقسم بين الآلات الموسيقية يقابله تقسيما اجتماعيا أو طقوسيا.[1] تجلت معالم الموسيقى في الحضارة الفرعونية القديمة وظهرت النقوش التي تحمل أسماء العازفين ،وكانت في الغالب لموسيقي وفناني القصر الذين لهم أعمال فنية متميزة ، واعتبر كونفشيوس منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد انه لابد من استخدام الموسيقى في التعليم فهي تعلم الناس تنظيم المجتمع (2) .

فسكان المغرب العربي ينحدرون من مستوى موسيقي متميز ويمتلكون ثروة موسيقية متنوعة ساعدت على تشكيل الوعي الاجتماعي لدى شعوبها، وبين أفرادها لدلك نجد نماذج موسيقية متنوعة خاصة الفلكلورية منها والتي تتجلى لنا في اغلب أغلب مظاهر الحياة الاجتماعية،سيما عندما يتعلق بالجزائر وبوجه الخصوص الفنون الشعبية

بالجنوب الجزائري بولاية تمنراست ، إن اختيارنا لهذا الموضوع نابع من اهتمامنا بتاريخ هذه المنطقة موطن طوارق الاهقار وبتراثها الثقافي محاولين الكشف عن الوظائف الاجتماعية المرتبطة بفنون هذه المنطقة وإنني عايشت الكثير من عادات الطوارق، خلال مكوثنا فيها لفترة طويلة عندا كنا بصدد التحضير لشهادة الدكتوراه،والتي كانت موسومة بالثقافة السياسية لدى طوارق الاهقار ،هذه المنطقة التي تعتبر ميدانا خصبا للبحوث الانثروبولوجية بجميع فروعها.

إن الممارسات الثقافية لدى الطوارق هو انعكاس وامتداد للواقع والحياة الاجتماعية والسياسية لهم من خلال الفنون التقليدية كالرقص الذي يرتبط بالإخصاب وتختلف الرقصات من قبيلة إلى أخرى،وذلك باختلاف الإيقاع الخاص والموسيقى الراقصة من جهة والآلات المستعملة والتصفيق والأشعار المصاحبة للموسيقى من جهة أخرى ،فغناء الطوارق حسب ظرفه فإما غناء بالأمجاد والبطولات،وإما غناء مناسبات وضع قديما في موضوع المناسبة. (3)

هذا المجتمع الأموسي أين المرأة لها مكانة خاصة بحيث لا يمكن التطرق للبناء الاجتماعي التقليدي دون تحديد المركز الاجتماعي للمرأة ،حيث اندهش ابن بطوطة من الحرية التي منحها الطوارق لنسائهم ومن أهم الأشياء التي تتعلمها الفتاة التارقية من أمها ،وتعتبر ذات أهمية في مجتمعها ،العزف على آلة الامزاد ،فهي الأمينة والمحافظة على ثقافة الطوارق (4).ويقول الطوارق إن الأم هي التي تحمل أبنائها

قبل الولادة ،لهذا فهم أبنائها وليسوا أبناء الرجل فالنسب لها والميراث لها [5] لموسيقى الاهقار صفتان ،طريقة أدائها والأخرى دلالتها بالنسبة للمجتمع فهي وجدت بوجود الإنسان،وأوحيت إليه الموسيقى من العلاء لغة ليست كاللغات ،تحكي ما يكنه القلب للقلب،عم تأثيرها الناس ،فترنم بها البرابرة في الصحراء[6]. وظهر العزف الموسيقي بداية بتطور الآلات الموسيقية بصورة عامة وبتطور الآلات ذات الصوت الواحد بصفة خاصة ، وقد استعملت هذه الآلات غالبا في أوقات الحروب أو بعض المناسبات الشعبية أو عند إعطاء إشارات معينة للآخرين وهذه الآلات الموسيقية هي آلات إيقاعية بالدرجة الأولى وقد تطورت عنها جميع الآلات الإيقاعية ذات الألحان المختلفة.

ومن الآلات الموسيقية الإيقاعية تطورت جميع أنواع الطبول و الدفوف و الطبلات وما يشابهها،أما بالنسبة للآلات الهوائية فقد تطورت عنها جميع أنواع الناي و الأبواق و المزامير،كما تطورت في الأخير الآلات الوترية المتقدمة كالقيثارة و العود و الكمان و غيرها.[7]

فتعديل الآلات الموسيقية التقليدية واختراع آلات جيدة والبحث عن أصوات جديدة تلاؤم الإنسان المعاصر، الإنسان الرقمي،يرافق الشعر الغنائي بعض الآلات الموسيقية التي تعايش الحدث وستجيب لمقتضاه وتلبي أحاسيس الجماعة من جميع النواحي،ويقول في هذا الشأن فروبينوس مؤسس المتحف الإثنولوجي في

فرانكفورت:"عندما يضرب الشامان وهو رجل دين على طبله فانه يعلن عن الجانب الأخر من طبله صورة لعالمه الروحي ،أي انه يطرد بدلك جميع الأرواح التي تعيش في الأرض وفي الجبال والمحيطات وكل المخلوقات التي توجد عليها " [8].

الامزاد لغويا تعني الشعر ،فهو عبارة عن (كمان) أحادي الوتر صندوقه مستخرج من نبتة اليقطين la calebasse أتالكاس باللغة التارقية من نصف قرع، فبعد أن تجف في أشعة الشمس يؤخذ مقطع طولي و توضع عليه قطعة من جلد الماعز ، و يقطع الصندوق من جهة أخرى و وتره مصنوع من خصلة شعر عنق أو ذنب الفرس (أزيو) يحتوي الإمزاد على عينان في و سط الجلد (تيطاوين) و عنق على شكل قوس تابورين فالإمزاد لا يحتوي على مفاتيح أو عصافير (و إنما يحتوي على سيورة تسايت) وظيفته شد وضع الوتر ،و حامل وتر الإمزاد تيزوين أو مركب من ساقين من الخشب يظهران على شكل v مقلوب . قوس الإمزاد تاقاني وهو مصنوع من قطعة خشب أساير مشدود من الطرفين بخصلة شعرة الفرس أزيوazyu .[9]كما هو مبينا في هذا الشكل:

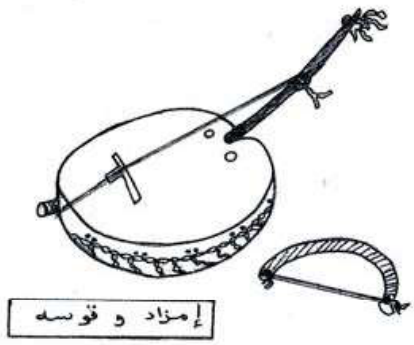

إمزاد و قوسه

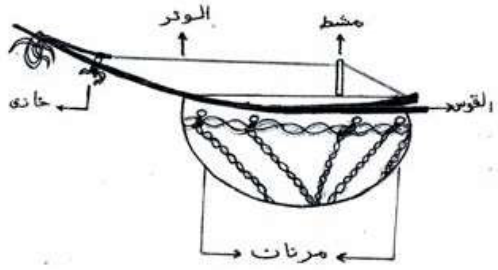

مقطع طولي لآلة الأمزاد

وللإمزاد ثلاث وضعيات للعزف:

- الوضعية الأولى، العزف على الإمزاد يكون إلا في وضعية الجلوس على الأرض فهي الأكثر شيوعا في بالأهقار و هي وضع الإمزاد على الساقين .

- الوضعية الثانية هي أن تكون الساق اليسرى للعازفة مطوية أفقيا على مستوى الأرض .

- الوضعية الثالثة وضع الامزاد أفقيا على ساقين العازفة المطوين عموديا على الأرض.

الأشكال المختلفة للعزف:

– عزف مرفوق بالأشعار المختلفة يغنيها الرجال.

- عزف منفرد.

إن شعراء الطوارق مجبرين على احترام القواعد المحددة في تأليف الأبيات الشعرية ، وهذا حسب عدد الإقدام المكونة للنغم سواء تؤلف على الوزن الطويل ، المتوسط، او القصير . فالأبيات الشعرية تنتمي إلى أشكال ، سيانن **seinin** هينانا **heinena**، لا لا **lala** و أليوان**aliouen** .

و كل هده الأشكال تناسب مع كل المواضيع الشعرية ماعدا أليوان يخصص للغناء في الحفلات الزفاف فقط ،فهناك اشكال اخرى الا ان عزفها غير شائعا.

ولهذه الآلة مكـــــــــــــــــــانتها لدى هذا المجتمع بحيث لعب دورا كبير داخل المجتمع التارقي فشاركهم أفراحهم ، أمالهم و مآسيهم و أقرحاهم،عندما يعزف الامزاد لا يرض الرجل التارقي ان يقطع عليه متعة الاستمتاع فهو يغوص عند سماع انغامه في بحور من التأمل و التفكير ويتباهى الطوارق في مناسبات وعندما يتحدثون يقولون باسم الامزاد أي باسم الشرف ويقال " فحينما ينطق الإمزاد يقل الكلام ، يدنو العبد و يسبح التارقي في بحور من النشوة و التأمل ". [10] و رجل الامهاق حين يسمع إمزادا يرتجل شعرا في الحين ، ولشدة ارتباطه قال احدهم: "اليوم الذي أموت فيه لابد أن تدفنوني في قطعة بيضاء ناصعة من كتان مثل بياض القمر وصدقوا عني ثلاثة أغنيات معزوفة بالإمزاد واقرؤوا علي الفاتحة "(11) من هنا نلاحظ مكانة هذه الآلة ،والوظائف التي كانت تقوم بها

- تشجيع الرجال قبل أي معركة و في جميع الحالات الخطيرة .
- تشريف و تكريم الأبطال .

– تذكير رجال الإموهاق أي الطوارق الذين هم على سفر أو أماكن الرعي بطيب وعذوبة الحياة في مضارب البدو ، الامزاد هي آلة باهرة وذات هبة شاركت ولا تزال تشارك في التظاهرات والأحداث الكبرى للحياة. ومن هذا المنطلق فالفن تمشيا مع طبيعته يكون وسيلة لتسلية و الترويح، اعتمدت الدول الكبرى في سلمها و حربها الفن الخطابي و الموسيقى الحماسية التي تلهب نفوس المحاربين من اجل الدفاع عن أوطانهم . فالخطب البيانية و الموسيقى العسكرية و الفن الحماسي بشكل عام قامت بدور كبير في المواجهة و التصدي للعدو وأحزان الانتصارات الباهرة[12] .

ويروى عن طوارق الاهقار أن هذه الآلة لعبت دورا كبير في تقوية الشعلة الحماسية لدى المحاربين ، فحينما تعزف ألحان الحرب لا يتردد احد عن ساحة الوغى ، وان عاد المحاربين ظافرين سخت عليهم النساء بأنغام الامزاد تشيد بالبطولة و الشجاعة و تخلد يوم الانتصار و هذه الأبيات مأخوذة عن احد حفظة الشعر تروي معركة "تينيسا 1902":[13]

هوندي اهلواغ ادنكة تينيسا عندما انطلقت إلى تينيسا

اسنكه مسره اوداد ازران نسغد ونحن في طريقنا على المعركة

نوتريافل توريفن نسغدد نوتريافل تزداد سرعة الجمال نحو ساحة المعركة

تكنة ادروس اصغى ترام سوف أبقى مع الجماعة مهما اشتد و طيس الحرب

تاغة نتفوس ورد سيكتم ساحة الوغى تبقى من اهتمامايّ

أماالأسماء التي تطلق على أنواع الأنغام فتؤخذ عادة من أسماء الرجال الذين الفت من اجلهم ، او اسم القبيلة التي تعرف بعزفها.و المرأة تمتنع عن عزف أي نغم به قبيلة كانت لها ضغينة مع قبيلتها ، وان أخطأت و فعلت ذلك و سمعها الرجل غضب و يصل به حتى إلى تكسير امزادها و هدا دليل آخر للدور الهام لآلة الامزاد. [14]

و من أشهر عازفات امزاد المرأة التي يفتخر بها كل الطوارق "داسين" و هناك امرأة أخرى اسمها "أوتا"وقد مزج الطوارق بين عذوبة الموسيقى و الأشعار و ساحة القتال و هذه الأبيات للشاعر "أمداراق آمور "[15] تشهد على ذلك:

انك ذاهب لتغزو و قد غزاك الحزن

غياب الإمزاد هو السبب ألمك

ما أجمل داسين و ما اعذب امزادها

سنبحث عنها لو نحيط بها ،آخاموك في الغزو

اذا لم أصبح فريسة للطيور

قريبا سأنهي حزنك

اختصت النساء بالعزف على الإمزاد لان المرأة التي بادرت بصنع الآلة ومن ثم اختصت بها المجتمع التارقي يتميز بتقسيم الوظائف فلكل جنس وظيفته فليس هناك تداخل في الأدوار ،فكان من نصيب النساء التابعيين لقبيلة كل غلا وهم النبلاء من التراتب الاجتماعي فالتركيبة الاجتماعية لمجتمع طوارق الاهقار هي هرمية ،قبيلة كل غلة –les kel ghelaالتي تسيطر على اكبر منطقة في الأهقار وقبيلة طايطوق les taitoq ، وقبيلة تجيه ملت les trdjéhé melet [16] البنية الاجتماعية لمجتمع الطوارق تنطوي على تقسيم تراتبي ، مما منح لها تعددية ثقافية .

.فخروج الرجل للرعي ،للتجارة أو الغزو وجدت المرأة في الامزاد الو نيس و الرفيق الذي يخفف عنها وحدتها و وحشتها و يروى في اسطورة تينهنان (ملكة طوارق الاهقار) لما دخلت إلى الأهقار كانت تحمل معها آلة تشبه آلة الرباب ومن هنا كان ارتباطها بالنساء النبيلات منهن.

ومن العادات المعروفة عندما تتم المرأة التارقية من صنع الإمزاد تذبح له شاه وهذا لطرد الأرواح الشريرة منه حتى يقوم بدوره أحسن دور في شفاء الناس وفي تزويج النساء العوانس وجلب المطر

لدى المجتمع التارقي احترام لعازفات الإمزاد لاحتلالهن مكانة خاصة داخل المجتمع ،

فادا كان لأحدهم صديقة سواء شابة أو امرأة متقدمة في السن عازفة ماهرة على آلة الإمزاد يهديها كلما ذبح ناقة أو عترة أضلع الشاة و

تقدم لهل مرشوقه في الرمح الذي يغرس في مدخل الخيمة ،وتقوم المرأة بتوزيع الأضلع على الصديقات متباهية قائلة :

" انظرن انا أجيد العزف على الإمزاد لدا يهدوني الأضلع وان ذبح ولم يهديها الأضلع قالت فيه هجاء . [17].

من خلال هذا العرض لمكانة الامزاد داخل هذا المجتمع المحلي نلتمس الدور الفعال والتعدد للوظائف والترابط العضوي لهذه الآلة باعتبارها أداة من الأدوات العملية التي تقوم بإشباع حاجات طوارق الاهقار الإنسانية المختلفة،وهذا من خلال الفعل الاجتماعي الذي تقوم به في الحياة الاجتماعية.

وإن فنون الطوارق هي فنون جماعية وليست فردية ، هي غير مقصودة لجمالها وانما لفائدتها الاجتماعية،فهي بذلك تعكس وعيا جماعيا، حيث تعمل على تقوية المعتقدات ،وتخلق أجواء عاطفية وفكرية من خلال عرضها واستعمالها في المناسبات والمراسيم وتذكير الجماعة بتراثهم الثقافي ،هذا التراث الذي يحاكي الأسلاف، فممارسة موسيقى الامزاد هي أكثر من فن فهي تقوم بدور اجتماعي وطقوسي ، وبدور التنسيق الاجتماعي ،والنفسي. فالموسيقى هي تهذيب أخلاقي فلابد من تعليمها للنشء كما عبر عنها أرسطو [18].

الهوامش

1-فيليب لابورت .جان بيار فارنيه،اثنولوجياانثروبولوجيا،ترجمة مصباح الصمد،مؤسسة الجامعية للنشر،لبنان ،ط1،2004،ص،253

2-بشير خلف ،الفنون لغة الوجدان ،دار الهدى ، ميلة الجزائر،2009،ص65

3-محمد سعيد القشاط التوارق عرب الصحراء الكبرى،دار السراج ،لبنان ،ط ،4، 2003 ص 176

[4] محمد السويدي ،بدو الطوارق ،بين الثبات والتغير،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،1986،ص95

[5] نفس المرجع ،ص،98

6- ENCYCLOPEDIE DE LA MUSIQUE ET DICTIONNAIRE DU CONSERVATOIRE LIBRAIRIE DELGRAVE PARIS 1922 P 2922

7- بشير خلف المرجع نفسه ،ص 69

8-ابراهيم الحيدري ،انثروبولوجية الفنون ط واحد 1984 دار الحوار والنشر سوريا ،ص83

9-ابراهيم بهلول،، الآلات الموسيقية التقليدية في الجزائر ،دار الخلدونية،الجزائر، 2007، ص37

10- Andre simon les tradition des Touaregs ed Paris 1984p 133

11-عبد السلام بوشوارب،أمجاد وانجاد،المؤسسة الوطنية،رويبة ،1995،ص66

12-حسين الحاج حسن ،علم الاجتماع الادبي ،المؤسسة الجامعية للنشر،لبنان،ط،2،ص 268،1986

13 - معركة تينيسا1902: هده المعركة ضد المستعمر شرك فيها التوارق اهل توات معا وانتصر العدو فيها

14- ابراهيم بهلول،، الآلات الموسيقية التقليدية في الجزائر مرجع سابق ، ص38

15- داسين: ايت الهمة الأخت الكبرى لاخموك اغ الهمة احد حكام كل غلا أهم القبيلة نبيلة بالاهقار ابنها اخموك باي أخر أمين عقال الهقار من 1950الى1975تاريخ وفاته.كانت داسين بارعة الجمال تجيد العزف على آلة الامزاد و يقال عنها انه اقل هم الرجال بالهقار الذين يتمتعون بحكمة داسين.

16- L'hote (H), lestouareg du hoggar ,payot,paris,1955,p102

17- Charles de foucauld poesie touaregs-ed .livre d'or .1908 page 74

18-صالح المهدي ، الموسيقى العربية، تاريخها وادبها دار تونس للنشر ،1986،ص،8